سلافه العامري

الحب
في ادب نجيب محفوظ

هل من الممكن ان نكون موضوعيين ، او ان نستطيع الحكم بعدل وانصاف عندما يستغرقنا شعور الاعجاب والحب ؟ اني أشك في قدرة أي كان على ذلك في مثل هذه الحال . ولقد خامرني هذا الشك عندما خطر لي ان اكتب عن نجيب محفوظ ، هذا الكاتب الذي عشت معه خلال الصيف الماضي متدرجة منذ عام ١٩٣٨ تاريخ صدور أول كتاب له وهو « همس الجنون » وحتى عام ١٩٧٢ تاريخ صدور آخر كتاب له وهو « المرايا » . وقد فاتني فقط « أولاد حارتنا » و « شهر العسل » و « حكاية بلا بداية ولا نهاية » . وعندما أقول عشت معه فانني أعني تماما ما أقول ، حتى بدا لي وكأن كتاباته قد غدت جزءا من تكويني .

لذلك فانا لن أقيم أدب نجيب محفوظ ولن أحكم عليه ، لانني لا أستطيع ذلك ، وانما سأحاول أن أرصد ملامح الحب في قصصه وروایاته دون أقاصيصه ، وذلك لان الاقصوصة في جوها ومناخها ليست تربة صالحة لدراسة حب كاملة ، فهي قد تصور معاناة واحدة مما يعانيه المحبون ، اما الحالة بكل شمولها فالقصة الطويلة او الرواية أصلح لتصويرها . وقد اخترت هذا الموضوع من أدب نجيب محفوظ لاسباب ثلاثة :

أولا ـ لان هذا الموضوع يكاد يكون مهملا من قبل الدارسين ، فنجيب محفوظ الكاتب الاجتماعي ، والروائي المؤرخ ، والمفكر التقدمي ، والقاص الذي يشغله بناء القصة الفني ، استأثر باهتمام النقاد ، وصرفهم عن نجيب محفوظ الانسان الذي يضم بين جنبيه قلبا يخفق بالحب ويؤرقه الحنين .

وثانيا ـ لانني رغبت في أن نعود قليلا الى الينابيع بعد ان أمحل روض الادب وغرق في خضم السياسة بين اليمين واليسار تارة والالتزام وعدم الالتزام تارة اخرى .

وثالثا ـ لانني أعتبر ان الحب هو القطاع الرئيسي من قطاعات الحياة ، فكيف اذا كانت الحياة حياة فنان ، لا سيما وان لغة الحب حينما تسكب على أي معنى تجمله وتمنحه حقا في الحياة وفي الخلود حتى ما بعد الحياة . وأظن ان غاية الغايات التي يسعى اليها الناس هي نشدان السعادة والرضى ، وعندما يكون الانسان في حالة حب يكون قد قطع شوطا طويلا في سبيل الوصول الى تلك الغاية ، والحب كما أراه ـ لدى الفنان ـ هو وسيلة لغاية اخرى تضاف الى تلك الغاية ، هو وسيلة للفن وللعطاء .

والحب كلمة كبيرة يطيب للمتفلسفين أحيانا تقسيمها وتبويبها ، ولا بأس من التفلسف هنا ايضا لكي أحدد ان الذي سأرصده في قصص نجيب محفوظ هو الحب وليس المحبة ، الحب الذي عبر عنه أحمد عاكف بطل قصة « خان الخليلي » في الصفحة ١٥٨ بقوله : « ليس العدد الواحد بالمقدس كما يقول الفيثاغوريون ، ولكنه الاثنان ، الانسان يفقد نفسه في الجماعة ، ويغرق في الكآبة والوحدة ، ولكنه يجدها عند أليفه ، فالتكاشف الصريح والحب العميق والالفة المتزجة ، وفرحة القلب بانقلب ، والطمأنينة اللانهائية ، لذات عميقة لا تحدث الا بين اثنين » .

وعلى ذلك فالحب الذي يعنينا هنا هو الحاجة والنزوع والميل الى امتلاك المحبوب بغية تحقيق الشعور بالاكتفاء والرضى ، ومنعا للالتباس نقول اننا لا ننظر الى الحب على انه ظاهرة محض جنسية أو حاجة عضوية تتطلب نوعا من التفريغ لطاقاتها مثلها في ذلك كمثل الجوع والعطش ، أو أي وظيفة فيزيولوجية اخرى ، فظاهرة الحب أشد تعقيدا من ان تسمح لمن يريد فهمها بتبسيطها الى هذا الحد .

وتتصف عاطفة الحب ـ كما يقول صادق جلال العظم في كتابه « في الحب والحب العذري » ـ كغيرها من المشاعر والانفعالات الانسانية ببعدين رئيسيين : الامتداد في الزمان ، أي دوام الحالة العاطفية واستمرارها عبر فترة معينة من الزمن ، والاشتداد وهو يدل على مدى عنف هذه الحالة العاطفية وحدتها في لحظة ما من الزمان .

وحالات الحب التي عاناها أبطال نجيب محفوظ في معظمها ينتظمها البعد الثاني ، وهو اشتداد الحالة العاطفية وحدتها في لحظة ما من الزمان ، وذلك لان هذا النوع من الحب كما يبدو لي هو الذي يصلح للقصص والروايات ، هذا الحب الذي يبزغ فجأة وينتهي فجأة ، وغالبا ما يكون انتهاؤه مأساويا .

اما الحب الذي ينتظمه البعد الاول ، وهو الامتداد في الزمان ، فهو الذي يفقد عنفه بمرور الزمن ويتحول الى صلة من نوع آخر تتصف بالثبات والاستقرار والالفة بين المتحابين ، وهذه الصلة بابتعادها عن الانفعال تصبح شاحبة ضعيفة غير قادرة على اثارة أي اختلاجات في أعماق الانسان . هذا الحب لم نقع عليه في قصص نجيب محفوظ الا نادرا كحب أحمد ابراهيم شوكت لسوسن حماد في « السكرية » ، وحب حسين كامل لبهية في « بداية ونهاية » .

ذلك لان الحب في بناء القصة عند محفوظ لم يكن هو الموضوع الرئيسي ، أي انه لا يمتد على طول القصة ، بل كان جزءا من كل ،

اي انه مغامرة من مغامرات الحياة يزج بها في قصصه التي تصور الحياة ككل .

من هنا نجد ان الحب عند أبطاله يتجسد في المغامرة التي تنتهي عادة بضربة من ضربات القدر فتخلف الشعور بالمرارة والالم ، وهناك حالة حب واحدة في قصص نجيب محفوظ اخترقت جدار مفارقة الحب الكبرى ، هذا التعبير الذي اصطلحه صادق العظم على امتناع الجمع بين الامتداد والاشتداد في حالة حب واحدة ، هذه الحالة هي حب عجلان ثابت لزوجته في « المرايا » ، هذا الرجل الذي « قدس علاقته بها ، متفانيا في الاخلاص لها والتسامح معها ، مهيئا لها الحياة الطيبة ، ولم يسمح لنفسه بمحاسبتها على تصرف ، تواجدت أم غابت ، استقامت أم استمرت . وهو الذي هز رأسه في رثاء لادمانها الافيون وقال : انني أحبها وسأحبها الى الابد ، ولكنها لم تعد قادرة على اعطاء الحب » (المرايا ص : ٢٦٠) .

بعد ان حددنا الطابع العام للحب عند محفوظ يحسن ان ندخل في بعض التفصيلات ، وأول ما نلاحظه ان الحب بين المتحابين ليس متبادلا بنفس العمق والشدة الا في القصص التاريخية ، التي تستند الى الاسطورة كحب فرعون للفانية رادوبيس ، وحب ددف بن رع للاميرة مري سي عنخ في قصة « عبث الاقدار » ، وكان الكاتب يقر بأن الحب العميق الذي يربط ربطا حقيقيا بين قلبين وبنفس الشدة والانفعال لا وجود له في الواقع ، وانما هو امر في حكم الاساطير .

وهناك الحب الابدي الخالص المجرد حتى من شكل المحبوب كحب بنامون بن يسار في رادوبيس « هذا الحب الذي لا يعرف الاثرة ولا التملك ولا الطمع ، ويرضى بالاحلام والاوهام ، فيا له من شاب حالم بعيد عن الدنيا ، ولو طمع في قبلة مثلا لما عرفت كيف تتحاماه ، ولكنه لا يطمع في شيء كأنه يخشى لو لمسها ان يحترق بلهيب غامض او لعله لا يصدق انها شيء يمكن ان يلمس ويقبل ، انه لا يرمقها بعين انسان، فلا يستطيع ان يراها من بني الانسان ، ويقنع بان يحيا على بهائها كما يحيا نبات الارض بالشمس السابحة في السموات » (رادوبيس ، ص ١٧٧) . او كحب كمال أحمد عبد الجواد لعائدة في الثلاثية ، هذا الذي رفعها الى مصاف الآلهة ، ورضي بهذا الحب المحروم الى آخر حياته ، ورضي بالالم الذي سببه له بل أحب هذا الالم واستمراه « تذوق هذا النوع من الالم المقطر ، روح الالم أو ألم الالم ، ليكن عزاؤك انك انفردت بألم لم يشعر به انسان قبلك ، وانه سيهون عليك الجحيم اذا قدر يوما ان تحملك زبانيته على السنة لهيبه ، ألم .. لا لفقد الحبيب ، فانك ما طمعت يوما بامتلاكه ، ولكن لنزوله من علياء سمائه ، لتمرغه في الوحل بعد حياة عريضة فوق السحاب .. لانه رضي لخده ان يقبل ولدمه ان يسفح ولجسده ان يبتذل ، ما أشد حسرتي وألمي » (قصر الشوق ص ٣٥١) .

وهاتان الشخصيتان تقودان للتساؤل : هل الحب من قضايا العالم السفلي أم انه من قضايا العالم العلوي ، وهل هناك حب آثم وحب طاهر ؟ لعل شخصية أحمد عبد الجواد العمود الفقري للثلاثية تلقي ضوءا على الاجابة « فالسيد لم يخبر من ألوان الحب ، على وفرة مغامراته ، الا الحب العضوي ، الا انه تدرج في اعتناقه الى أرق صورة وأنقاها ، فلم يكن حيوانا بحتا ولكنه الى حيوانيته وهب لطافة احساس ورهافة شعور وولعا بالفناء والطرب ، فسما بالشهوة الى أسمى ما يمكن ان تسمو اليه في مجالها العضوي ... لم ير في اية امراة الا جسدا ولكنه لم يكن يحني هامته لهذا الجسد حتى يجده خليقا بأن يرى ويلمس ويذاق ويشم ويسمع ، شهوة لكنها ليست وحشية ولا عمياء هذبتها صنعة ووجهها فن فاتخذت لها من الطرب والفكاهة والبشاشة جوا واطارا » (بين القصرين ص ١١٢) . بينما نجد نفيسة كامل علي في « بداية ونهاية » قد هوت الى الحضيض اذ « لم يكن بوسعها ان تنفر من انسان أيا كان اذا أبدى نحوها ميلا ، لا بسعها الا ان تحب من يحبها » (بداية ونهاية ص ٧٣) .

لعل هذه النماذج الاربعة الاخيرة من الشخصيات تمثل جانبين متطرفين في الحب ، وربما الحب الذي يسعى اليه البشر هو وسط بين الجانبين « هل الحب شيء غير هذا الشوق الفامض النابع من الحنايا ، هل هو شيء غير هذا الحنين الذي تزفر أنفاسه عصير القلب والكبد ؟.. هل هو شيء غير هذا الفرح السماوي تطرب له النفس والدنيا جميعا ؟.. هل هو شيء غير هذا الالم المشفق من الاخفاق والعودة الى الوحدة والوحشة ؟ هل هو شيء غير ان تسكن تلك الصورة الساذجة اللطيفة هذا الصدر فتصير زاد أحلامه ومبعث آماله والامه » (خان الخليلي ص ٩٦) .

هذا هو الحب من حيث هو ظاهرة قائمة بذاتها عند نجيب محفوظ ، ولكن ألا يختلف الحب تبعا لطبيعة المحبين ؟ هل الحب يذكي روح التنافس او يخمدها ، وهل يكبله الحياء والاستكبار والجبن (شخصية احمد عاكف في خان الخليلي) ام انه « لا يجوز لمن يتصدى للحب ان يعرقل جهاده بالحياء او بالجزع او بالخوف ، انس كرامتك اذا كنت في اثر امراة ، لا تغضب اذا عنفتك ، لا تحزن اذا سبتك ، فالتعنيف والسب من وقود الحب ، واذا ضربتك امراة على خدك الايسر فادر لها خدك الايمن ، وأنت أنت السيد في النهاية » (خان الخليلي ، شخصية رشدي عاكف) .

هل يعني هذا دعوة للكفاح من أجل الحب وقد « شعر عباس في هذه اللحظة الفاصلة من حياته بقوة الحب وسلطانه وسحره العجيب ، ولعله أحس احساسا غامضا لا يرتقي لمرتبة الوعي والفكر بقدرة الحب على الخلق والتعمير ، فموضع الحب من نفوسنا هو مهبط الخلق والابداع والتجديد ، ولذلك خلق الله الانسان محبا ، وترك مهمة تعمير الوجود أمانة في رعاية الحب » (زقاق المدق ص ٤١) .

وهناك الحب الصامت الذي لا يعبر عن نفسه ولا يكافح من اجل الوصول ، وانما يستسلم للقدر في رضى تام ودون نأمة تمرد ، فيترك حبه مستنيما في حنايا الذات ، ولا يستيقظ الا عندما تطرق الفرصة بابه بشدة كما نجد في حب حسين لبهية في « بداية ونهاية » .

كما نجد الحب عند محفوظ يتمنى الدمار للعالم بما فيه ليستطيع ان يخلو بالحبيب ، فكثيرا ما يرتبط الحب بالموت كرغبة صابر سيد الرحيمي في رواية « الطريق » ، ورغبة احمد عاكف في « خان الخليلي » .

ومن المحبين عند محفوظ من يخلق العقبات التي تعوقه عن الوصول الى حبيبه ، كحب صابر لالهام في رواية « الطريق » ، اذ انه يكذب عليها ، فيتستر على حقيقة كونه يبحث عن أبيه في المرحلة الاولى من حبه أي قبل ارتكابه الجريمة ، ثم يعترف لها بهذه الحقيقة عندما يكون لديه عائق اكبر يحول دون الوصول اليها وهو استحالته الى مجرم .

وشخصية صابر الرحيمي في نطاق الحب ـ علما بان لها دورا اكبر في بناء القصة ككل ـ شخصية غنية جدا ، فهي تمثل الصراع الدائم في النفس بين الحب الذي اصطلح على تسميته بآثم وبين الحب الطاهر ، أي بين عشق الروح وعشق الجسد ، هذا الصراع الذي أستعير له تعبير « مفارقة الحب » الذي اصطلحه صادق العظم

في كتابه « في الحب والحب الذري » للتعبير عن أستحالة تحقيق بعدي الامتداد والاشتداد في حالة حب واحدة ، أستعيره هنا للتعبير عن استحالة اجتماع هذين النوعين المتطرفين في حالة حب واحدة .

اذا كانت شخصيات نجيب محفوظ هي نماذج من المجتمع المصري، الا انها جميعها من خلقه ، فهو سوى طينتها ونفخ فيها من روحه . ولكن يبقى امامنا احتمال آخر ، وهو انه بصفته روائيا ، يستطيع ان يعيش عدة حيوات في وقت واحد ، وهو قادر على تلبس العواطف الانسانية بالرغم من تباينها وتناقضها ، من هنا يمكننا اعتباره غريبا عن شخصياته . وكون الاديب يكتب بوحي من فناءاته ، وفي اكثر الاحيان بوحي من حياته الخاصة ، لا يعني بالضرورة بالنسبة للدارس الذي يتصدى للعمل الادبي ان يخلط بين النموذج الانساني الذي يصوره الكاتب ، وبين الكاتب نفسه .

ولكن صدور « المرايا » التي قيل انها مشروع مذكرات شخصية لنجيب محفوظ ، وغلبة الفنان عنده حولتها في النهاية من مذكرات الى رواية ، يطرح امامنا علامة استفهام حول كون الروائي يعيش عدة حيوات او انه يعيش حياته فقط ، وخاصة في موضوع الحب ، هذا الموضوع الذاتي البحت ، ذلك ان معظم الشخصيات التي تحدث عنها في « المرايا » ما هي الا نماذج عرفناها في قصصه وروايانه السابقة ، ويعنينا هنا العنصر النسائي ، لانه يشكل الطرف الآخر بالنسبة للرجل في تركيب الحب ، فمجيدة عبد الرزاق تذكرنا بسوسن حماد في « السكرية » ، وفايزة نصار تذكرنا بزهرة في « ميرامار » ، ويسرية بشير تذكرنا بمريم في « بين القصرين » وعلاقة كمال بها ، وأماني محمد تذكرنا بسنية كامل في « ثرثرة فوق النيل » ، وصفاء الكاتب تذكرنا بعائدة شداد في « قصر الشوق » ، وسعاد وهبي تذكرنا بزنوبة في « الثلاثية » ، ووداد رشدي تذكرنا بالهام في « الطريق » .

اما المرأة كما تبدو في قصص نجيب محفوظ ، فهي انسان معافى نفسيا ، أي انها قادرة على الاختيار وجديرة به ، ليست مقهورة ولا مغلوبة على أمرها ، كاحسان في « القاهرة الجديدة » وحميدة في « زقاق المدق » ، وحتى أمينة في الثلاثية التي تمثل القهر والكبت العام ، واما هي ذاتها فليست مقهورة ولا مغلوبة على امرها ، وانما تشعر بالرضى والاكتفاء . وكذلك زنوبة وخديجة وسوسن حماد في الثلاثية ، والهام وكريمة في « الطريق » ، وديري في « السمان والخريف » ، وسمارة بهجت في « ثرثرة فوق النيل » . وتصوير المرأة على هذا الشكل ان دل على انها معافاة نفسيا ، فانه دليل أعمق على ان الكاتب نفسه في أتم عافية .

بالرغم مما تقدم تبقى علامة الاستفهام قائمة ، هل الحب الذي استخلصنا ملامحه في أدب نجيب محفوظ هو نفسه الحب عند نجيب محفوظ ؟ لا يمكننا القطع في الاجابة ، ونكتفي بأن ننبت اخيرا ان الحب لم يكن موضوعا أساسيا في قصصه ، أي انه لا يمتد على طول القصة ، ولكن هو مهم جدا ، لانه يرطب الجو العام للقصة ، فينساب في حناياها دفء الحياة .

وقد صور في أبطاله المحبين معظم تناقضات المشاعر الانسانية ، فتارة هم عذريون ينشدون اللذة في الالم اكثر مما ينشدونها في الحب، وتارة هم جسوريون يستهينون بكل عقبة في سبيل الحب . تارة تعمرهم الرغبة باعمار الوجود وضخ الحياة في الاشياء ، وتارة تغرقهم الرغبة في التخريب والتدمير ، ولكننا لم نجد في محبيه من يسعى للموت في سبيل الحب ، او من مات بسبب الحب ، الا في القصص التاريخية . وهذا تأكيد من الكاتب على ان الحب هو صنو الحياة يأخذ منها بقدر ما يعطيها .

قد يكون لغيرنا من الدارسين رأي آخر في الموضوع ، ولكن حسبنا اننا سعينا للكشف عن جانب من أدب نجيب محفوظ لم يخرج الى موقع الضوء في اهتمامات دارسيه الا في اطلالات عابرة .

دمشق — **سلافة العامري**

دار الآداب تقدم :

رحيل المرافئ القديمة

مجموعة قصص

غادة السمان

رؤى عجيبة لعالم واقعي واسطوري تحتل فيه ماساة الهزيمة الحزيرانية حجرالزاوية، بذلك الاسلوب المتوتر واللغة الحية اللذين اصبحت فيهما غادة السمان نسيج وحدها في القصة العربية القصيرة

صدر حديثا

..٤ ق . ل